

الخدمة الاجتماعية في الإسلام

للأستاذ لبيب السعيد



ألفت مصر بالها
أخيرا إلى الخدمة
الاجتماعية، وشرعت
تسميها في الطب
لأدواء الأفراد
والجماعات، وقد
استجدت لهذا
الفن في مصر مساهد
ودراسات يلاحظ
من يراقبها أنها مكثبة
على إنتاج الغرب في

هذه الناحية تنقل منه وترجم عنه . ولا حرج في هذا
لو أنه كان مصحوبا بلفتات جادة غير بعيدة إلى أصول تلك
الخدمة في ديننا وفي تاريخنا ، حتى تكسب الخدمة الاجتماعية
نفسها حياة قوية تمدها بها المبادئ الإسلامية الصريحة ، وحتى
لا يستقر في ضمير الشباب خطأ أن هذا الفن مستورد أيضا من
الخارج ، وحتى تنفادي نتيجة مرجحة هي أن يتنكر لتاريخنا
الاجتماعي أو لا يثق به من وقفوا على تفوق الخدمة الاجتماعية
الحديثة في الغرب ، وجعلوا في الوقت نفسه أو لم يفهموا ما في
الإسلام من المبادئ الاجتماعية السامية .

لم يقف الإسلام عند تقرير التوحيد وبث الإيمان وتنقية
المقائد وفرض المبادئ وسن الأحكام ، ولكنه عالج النظم
الاجتماعية كلها ، فأعلى شأن الكرامة الإنسانية ، وأرسى القواعد
للحياة البيتية السالحة ، ووصل الأرحام ، وبسط يد الحنان للضعيف
وعمر البتاي والضعفاء والمرضى بزخار من الرحمة والرعاية ، وسن
انتاسية والتسلية ، وكان بتعاليمه وسير رجاله دعوة دائبة إلى نيل
القوة والجمال للنفس والمقل والبدن على السواء ، وأولى الشؤون
الاقتصادية عنايته السددة وتنظيمه الراشد ، ودعا إلى كل فضيلة
وعادى كل رذيلة .

فمل الإسلام كل هذا بنصوص صريحة بظاهرها بعضها بعضا

وتصدقها أقوال الرسول وصحبه ، فاستطاع المسلمون الأولون في
نور هذه النصوص والأعمال وفي كريم نهجها أن يوفوا على الناية
من النجاح الاجتماعي بقدر ما سمح لهم زمانهم .

لم يتناول التزويل كل مبادئ الخدمة الاجتماعية بالبيان المفصل
ولكن المبادئ التي وردت فيه مجملة لم تقصر عن مدى التفصيل
وقد تناولت السنة بأنواعها القولية والفعلية والتقريرية بالشرح
والإتمام هذه المبادئ ، كما هو الشأن في صكثير من أمور الدين
ثم كان التطبيق الرائع لتلك المبادئ على أيدي المسلمين في عصور
مختلفة ، فأصبحت بمض أخلاقهم بل بعض حياتهم ، وبدت في
تاريخهم وضاعة ، لها نورها اللامع ولونها المتميز .

ولقد نجد أسماء خدمات اجتماعية تؤدي في زماننا ولا يعرف
بعضنا لها نظيرا في النظم الإسلامية ، ومثل هذه الخدمات
في الأغلب موجودة في هذه النظم بالروح والجوهر وإن لم توجد
بالإسم والسمات المصرية . وفي الوسع إذا درسنا الأصول والنظم
التي وضع الإسلام أساسها ، وإذا عرفنا الاشياء ، وتقسنا الأمور
بنظائرها وانتقمنا عما لفقها المسلمون من تفصيلات مينة
واستدلالات صائبة وقربيات منطقية ، في الوسع عندئذ أن
نقرر أن أنفع وأحدث ما استجد من فنون الخدمة الاجتماعية هو
أصيل في الإسلام كل الأصالة .

يقول القرآن في اختصار : « إءنا المؤمنون إخوة »
« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » فتجعل كائنا الآتين
الوجيزتين أمهات مبادئ الخدمة الاجتماعية من تكافل ووفاء
ورحمة ومعاونة شاملة .

ويؤكد الرسول هذا المعنى في لفظ قليل . « المؤمن للمؤمن
كالبنيان يشد بعضه بعضا » فلا يبق في معرض الخدمات التي يبذلها
المؤمن للمؤمن معنى من معاني الخدمة إلا تراحم على عقل التفكير
ومن كلام النبوة : « ابئوني الضعفاء فأعنا ترزقون بضعفائكم »
فلا يبقى ضعيف سواء في حاله أو في بدنه أو في نفسه إلا ويتوجه
إليه كل مقتف أثر النبوة بالخدمة الاجتماعية بمعناها الرحيب: يتفقد
حاله ويحفظ حقوقه ويحسن إليه ما وسمه الإحسان .

والمسلمون حين يتفهمون أصول الدين تتفطن طبائهم لهذه
الخدمة ومن الأمثلة أن النبي يقول : « الدين النصيحة » فيقول

اجتماعي عال. وما أجدر تلك الوثائق بدراسة تنا على نحو عميق لتستوعب كل ثاباتها ونذكر كل دلائلها الاجتماعية .

والحق أن على المختصين أن يحملوا ما انبهم من تاريخ الخدمة الاجتماعية في الإسلام ، فيبدطوا القول في كيف كافع هذا الدين الفقر ودرأ أسبابه ومسبباته ، وكيف سبق إلى جعل الزكاة من قواعده قبل عشرة قرون ونصف قرن من قانون الفقر في إنجلترا الذي جعل البر واجبا وينظمه التشريع . وكيف سبق المسلمون إلى تعيين الموظفين وإنشاء ديوان البر والصدقات ، وهو بمثابة وزارة الشؤون الاجتماعية الآن ؛ و« ديوان الجبوس » الذي كان ينهض بأعمال وزارة الأوقاف ، فنظم الاحسان على نحو لم تصل اليه النظم الحديثة إلا متأخرا ، وكيف أن نبي الإسلام سبق إلى نظام بحث حالة المائل الذي هو أنفع ما تقرره الخدمة الاجتماعية الحديثة . وكيف يثق الإسلام ويولو في تعريف المسكين وكيف يحفظ الوجوه عن المسألة ؛ وكذلك كيف يكافح التمسول أشد كفاح ، ويحبب في العمل ، ويعمل على اتاحتة المتعطلين ، ويرى تنشيطاً للحياة الاقتصادية عدم حبس المال عن الاستغلال ، فيدوغ لإقرض مال الوقف والثائب والفقطة بل مال اليتيم ومال المسجد ، وكيف كان تخديم التمهطين الثرياء من التقاليد الإسلامية الراسخة وكيف استولى المسلمون على الأمد من فضيلة اكرام الثرياء ، وكيف عنوا باقامة السبل والأجواض لسقاية العطشان ، وسبقوا إلى اقامة المطاعم للفقراء ، فمن كان من هؤلاء بمنه الحياء من الجلوس الى المراند العامة أرسل الطعام اليه في داره .

ومن حق الدراسات الاجتماعية الحديثة أن تعي أن الاسلام في عطفه على الضمفاء يلتفت إلى الصانع لفته بر ورحمة ، فيوصى بمعاوته . وكذلك يفعل مع الأخرق فيثبت عطفنا مبصرا .

أما اليتامى فبره بهم يجول في أسنى الآفاق إذ يمنحهم عناية بالغة الرقة والحرارة . ثم هو بهد ذلك يرى أن يزول اسم اليتيم عمن باغ الحلم . ولعل من مقاصد هذا حكمة تربوية هي الا يظلم اليتيم يتلقى عطف الناس فيمجزه في مستقبل أيامه أن يواجه الحياة من غير سناد .

والخدمة الاجتماعية التي تهدف الى خدمة الزواج تبذل في النظم

بعض أصحابه : إن ؟ فيقول : « لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » فيرى أحد الشراح أن نصيحة عامة المسلمين تنتظم « تعليمهم ما يجهلون من دينهم وعونهم عليه بالقول وبالفعل وستر عوراتهم وسد خلاصهم ودفع المضار عنهم ، وجلب المنافع اليهم ، وأصرم بالمعروف ونههم عن المنكر ، برفق وإخلاص والشفقة عليهم ، وتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم وتخولهم بالرعطة الحسنة وترك غشهم وحسدكم وأن يحب الرء لهم ما يحب لنفسه من الخير ويكره لهم ما يكره لنفسه من الشر . والذنب في أرائم راعا : ١٠٠ وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل ، وحتمهم على التخلق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة وتنشيطهمهم إلى الطاعات ... الخ » وسير كثير من الشخصيات الإسلامية علا من الناحية الاجتماعية صحائف تنطق بأنهم كانوا خداما اجتماعيين من الطراز الأمثل .

فمر بن الخطاب مثلا إذ يعلم الناس في أما كنهم ويخلف النزاة في أهلهم ، وإذ يتماهد العجوز المياء القعدة فيأتيها في بينها بما يصلحها ويخرج منها الأذى ، وإذ يسمع بكاء طفل في الليل فيتوجه نحوه غير مرة ، ويسأل أمه أن تنقى الله وتحسن اليه وإذ يكتشف الاملة وأبناءها الجياح ، فيحمل اليهم الدقيق والشحم ويبطخ لهم ويطعمهم ، عمر إذ يفعل هذا خادم اجتماعي بفهم واجباته ويؤديها في غير سطحية ولا قصور .

وإذا لم تكن قامت في الإسلام بصفة مطردة ودائمة هيئات اجتماعية تقصر رسالتها على الخدمة الاجتماعية على النحو المتبع الآن فان الإسلام جعل هذه الخدمة ضمن الواجبات الدينية العامة التي تنطبق عنها الجمعيات المحدودة وإنما تقوم بها الأمة كلها متكافئة متضامنة . ولهذا ليس من حق أحد أن يقول إذا سبقت له شواهد في الخدمة الاجتماعية الإسلامية مصدرها فرد أو أفراد إن الأمر مخصوص بهم

ولو قد درست وثائق الأوقاف الإسلامية لوجدنا أتابين متى الخدمة الاجتماعية تجل عن الإحصاء وكلها تستهدف الإحسان إلى الفقراء والضمفاء ، لأنها بمقتضى الفقه لا يجوز إن كانت على الأغنياء وحدهم . والكثير من أبحاهات الواقفين المسلمين هو آية إدراك

والعناية الطبية في المحيط الاسلامي لا تنفد عند الأجساد ، بل تقدر الأثر البيئي وتقدر حالات النفس ، قالوا في التطبيب : « وإن الأجساد الحيوانية تنفد بالأهوية المحيطة بها وبالحرارة والسكون والأغذية من الماء كقول والشروب والنوم واليقظة واستفراغ ما يفرح من الجسد واحتباسه من الأعراض النفسانية من الغم والحزن والغضب والمهم .. إلخ » (٥)

ولقد سبقت المستشفيات الاسلامية إلى العناية بالمرضى نفسانيا وهي العاية التي تحمل بها الخدمة الاجتماعية الحديثة ، سبقت تلك المستشفيات إلى ذلك على نحو متفوق ، فثلا كان المؤرقون من المرضى يجارستان قلاوون بالقاهرة يتسلون بسماع الموسيقى والغناء والقصص ليخرجوا المغموم والأوساب ، وكان الرقص والروايات المضحكة تعرض على بعض المرضى لعلها تفي عليهم في عنيتهم التامة والإيناس .

وتغذية المرضى وكسوتهم في المستشفيات الاسلامية كانتا نظفران بأوقى عناية .

والفقه الاسلامي لا ينفذ عن أثر الاستجمام والراحة في تحقيق الصحة . فهو يتيحهما لكل عامل بل يجعلهما حقاً لا ينفى أن يقره صاحب العيول ولو كان أجبره من دين آخر .

وقد سبق المسلمون إلى العناية بالنائه ، فكان يعطى مالا ينفق منه ربناً يقوى على العمل ، فضلاً عن كسوته . وقد عرف المسلمون الاسعاف الطبي الاحتياطي .

وخدمة الفرد عن طريق الجماعة كانت مما عرف المسلمون . والطرق الصوفية في بعض مناهجها تستهدف تلك الخدمة .

وقد مارس المسلمون الرياضة البدنية وأعظموها . يقول ابن طباطبا مثلاً عن فوائد الصيد : « ... ومنها أن حركة الصيد حركة رياضية تعين على الهضم وتحفظ صحة المزاج » (٦)

وقد عرفت للمسلمين ألعاب جمية خاصة ، ونبيهم صلوات الله وسلامه عليه — كما يبدو من استقراء أخباره — كان رياضي السيرة .

والإسلام يتيح لأهله التسلية البرية ، ويروي عن النبي أنه قال : « الهوا والمبوا فإى أكره أن يرى في دينكم غلظة » (٧) ،

الإسلامية إلى أمد مدى . والمسلمون يعدون يد العون لراعى الزواج بعامة والعوانس بمخاسة . وقد كان عمر بن عبدالعزيز يعدل الحاجة إلى الزواج بمخاجة الدين إلى سداد دينه وحاجة المسكين وحاجة اليتيم . ومن الأوقاف الاسلامية أوقاف تبنى بتجهيز العرائس الفقيرات إلى أزواجهن .

وعنى الإسلام بالأيم ، فدعا إلى الزواج منها ، وحبب في السعى على الأرملة صيانة لها في حياتها وشرفها .

وكفل الإسلام اليتيم ، وصان لهم كل حقوقهم ، وسهر على إنسانهم نباتا حسنا .

والإسلام يمنح الدين رحمة ، بانظاره ان كان مفسرا ، ويحبب في التصديق عليه ويجعله من المصارف المحددة للزكاة .

ونهب النظم الاسلامية التفاتها وعطفها للذين لا أهل لهم ولا عائل ، ولا طاقة لهم بعمل ، قالوا بالرباطات والخانقاهات كان يقيمها أغنياء المسلمين مثابة لهؤلاء ، وقد كان بعض الرباطات للنساء المنقطعات أو المطلقات أو المجازز الأرامل والمابدات » (٨) وتجهيز الرزق ودفنهم من أعمال البر القدمة عند المسلمين .

وفي ميدان الخدمة الاجتماعية الطبية ، سبق الإسلام المدنية الحديثة إلى الحل على أساليب العلاج التي لا سند لها من المعرفة ، وقرر مسؤولية الطبيب الجاهل .

والنظافة عند المسلمين عبادة ، بل هي فائحة عدة عبادات لهم وهي بالضرورة من قوانين حياتهم اليومية . وقد دعت السنة إلى نظافة طرق الناس وكل مكان يردونه أو يأوون اليه ، وحفلات البلاد الاسلامية بالحمامات على نحو لاقت ، فصرر الضعاطة مثلا كان بها الف ومائة وسبعمون حماما (٩) ، وبنداد كانت عدة الحمامات بها في وقت ما نحو ألفى حمام (١٠) ، وقرطبة كان فيها تسعمائة حمام (١١) .

ومما يصح أن يهدى إلى دراسائنا الاجتماعية أن النظم الاسلامية توق الناس الأمراض المدنية ، وأنها تولى ذرى الماهات التفاننا خاصا ، فالعريان أجرت عليهم الأرزاق وعينت لهم من يتقدم والمقدمون خصصت لكل منهم خادما .

ومن دلائل النضج الاجتماعي أن تظهر السجون في البلاد الاسلامية في زمان مبكر بعناية طبية فيخصص لها الأطباء .

(١) على مبارك : الخطاط التوفيقية ج ١ ص ٨٩

(٢) ابن دقناق : الأنتصار لواسطه عقد الأماص ج ٤ ص ٤٢

(٣) القرزى : خطاطه ج ١ ص ٨٠

(٤) المرى : فنج الطيب ج ٤ ص ٣١٥

(٥) المرورى : مروج الذهب ج ٤ ص ٣٢

(٦) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ص ٥٥

(٧) النوادى : فيض القدير ج ٢ ص ١٦٦